الآراء الواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لا تتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

ولتر ستيس واشكاليات الحكمة العملية

٢-٢
آية الله عمار ابو رغيف

اثار الفيلسوف الامريكي ولتر ستيس في الفصل الحادي عشر من كتابه (الدين والعقل الحديث) مجموعة اشكاليات جاءت تحت عنوان (مشكلة الاخلاق). وسوف اتابع هذه الاشكاليات حسب تسلسلها متابعة نقدية، لنتعرف على لون فكري خاص ،سنخلص إلى سماته بعد استيفاء فقرات البحث.

ملاحظات حول مفهوم الاساس الديني للاخلاق:

إذا عدنا صوب البحث العقلي الديني المتمثل ببحوث علماء الكلام المسلمين نلاحظ أن البحث عن الاساس الديني للاخلاق يكتسي حلة اخرى ويطرح عبر سياق ومن خلال نافذة واسئلة اخرى.دار الجدل بين المتكلمين حول سؤال مركزي محدد، ماهو مصدر الالزام الاخلاقي، هل الله وشرعته هي التي تقرر ما ينبغي فعله وما لاينبغي فعله،ام العقل قادر على أن يدرك ويحكم بما ينبغي فعله وما لاينبغي فعله؟

وازاء الاجابة على هذا الاستفهام المركزي انقسم المتكلمون إلى فريقين اساسيين: أشاعرة، ذهبت إلى أن الحسن ما حسنه الشرع والقبح ما قبحه الشارع وليس للعقل سلطان على تحديد الحسن والقبيح ادراكا أو حكما. ومعتزلة، ذهبت إلى القول أن العقل مستقل عن الشرع وقبل الشرع يدرك مبادئ الحسن والقبح، بل ذهبت إلى ابعد من ذلك فقررت أن تعطيل دور العقل في هذا المضمار يفضي إلى تعطيل الاستدلال على حقانية الرسالة والشريعة.

لقد افترضت مدرسة العقل الكلامية (التي يمثلها المعتزلة وجل متكلمي الشيعة) أن البحث في احكام العقل العملي واسس الاخلاق ومبادئ توجيه السلوك بحث (ميتادييني) واسئلته تسبق اسئلة البحث عن الدين واسسه العقيدية، ومن ثم فالتجربة الدينية تقام على اساس الاسس الاخلاقية ولاتستلهم منها، وتشكل قاعدة للسير والسلوك ولاتستلهم منها.

والاتجاه الذي يتبناه الباحث. وان اختلف في تطبيق علاقة مدركات العقل العملي بالاستدلال على بعض مفردات العقيدة مع اتجاهات المتكلمين. يقف في صف النظرة المتقدمة، أي اننا نرى أن الاسس الاخلاقية ومبادئ الحكمة العملية تسبق التجربة الدينية وليست لاحقة لها ونابعة من جذوتها، ومستنيرة بوهجها، بل التجربة الدينية تتكئ عليها، وتنطلق منها.

وحينما نعود إلى النقطة الثالثة التي حدد فيها ستيس مسوغ كون الحب اساسا للأخلاق نلاحظ القضية التالية مقررة في نص ستيس: ؟أن الأنا مصدر الشرور كالكراهية والحسد والبغض والغيرة من الآخرين، وحيث تمحي في التجربة الصوفية يمحي معها الشر بالوانه؟.

أن السؤال المركزي في فلسفة الاخلاق ينصب على تحديد ما هو خير وما هو شر، وبتعبير دقيق ينصب على تحديد ماهو حسن وما هو قبيح، ما ينبغي فعله وما لاينبغي فعله، ومن ثم سوف يكون تقرير ستيس بان الشرور هي الكراهية والحسد والبغض وأنها تمحّي في اطار الحب والرحمة مصادرة على المطلوب، لاننا نبحث عن مسوغ كون الحب منبع الاخلاق، وها نحن نحدد في تبرير ذلك اسس الاخلاق التي يراد من الحب أن يحددها وينشئها.

وبتعبير اخر أن ستيس لم يشتق مصادر الشر من الحب، بل عرفها في معزل عن جذوة الحب التي تأتي لاحقا لكي تقضي على هذه الرذائل في النفوس، ومن ثم فتحديد مصادر الخير والشر يسبق منطقيا تجربة الحب، ولابد من تعريفها اولا، لنعرف بعد ذلك ما يستطيع الحب أن يمارسه عمليا في اطار عملية تهذيب النفوس.

أن السالك السائر على طريق التجربة العرفانية لايستطيع أن يضع قدمه على طريق الخطوة الأولى من هذه التجربة مالم تتضح له معالم الطريق العامة، هذه المعالم التي يتم تحديدها على اساس تحديد ماهو خير وما ينبغي فعله من فضائل الاخلاق ليتحلى بها السالك ويتخلى عما هو شر وما لاينبغي فعله، ثم تبدأ رحلته التي قد تنتهي بتلاشي الانانية ورؤية الكل في واحد

أن التسلسل الطبيعي في طي رحلة الاقاليم يفترض أن تكون الحكمة العملية وإدراك مبادئها مقدمة مطوية يتوفر عليها السائرون السائحون في عالم الملكوت، وليست تابعة لاحقة لتجربة الاتحاد عين اليقين مع الخير المطلق والجمال الازلي.

أن السؤال عن اسس الاخلاق، بل التحلي العملي بفضائل الاخلاق مقدمة اولية لدى العارفين، ومن ثم يضحي السؤال عن هذه الاسس سؤالا قبليا يسبق التجربة الدينية، وتتأسس هذه التجربة على اساسه، بل السالكون لايبحثون عما ينبغي ولايكترثون بالتحلي بفضائل الاخلاق، فهم في عالم ارقى، قد تجاوزوا مرحلة السؤال، بل مرحلة الحديث العملي عن الفضيلة والرذيلة، هم في شغل شاغل عن مخالفة اسس الحكمة ومبادئ الاخلاق، بل تضحي مطابقة سلوكهم لهذه المبادئ تطبعا اقرب ما يكون للطبع وللجبلة.

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى أن التجربة الدينية ما دمنا نصادر عليها بوصفها حالة لا ينحصر أمرها في القديسين، بل لكل الآدميين، فمن الضروري جداً أن نشتق القواعد الأخلاقية في ضوء التجربة الدينية في حالتها العامة، أو قل في أدنى مراتبها، التي ينعم بها الجميع، لا أن نقفز إلى أرقى مستوياتها لنقرر في ضوئها ما ينبغي فعله. على أن تأسيس القواعد الأخلاقية لا يتاح ما لم تكن هذه القواعد شاملة وكلية يمكن أن تحمل على كل الفاعلين.

ثم أننا نلاحظ أن الرواقيين هم السباقون من بين حكماء الأخلاق إلى التأكيد على محبة الجنس البشري Humanitas في إطار مشاركة كونية مع الآلهة كما جاء لدى شيشرون. أومع الطبيعة الإلهية والاتحاد مع الله كما هو الحال عند سنكا: ؟ويصبح خير كل إنسان خيراً لي، لأن مبدءاً حياً واحداً يجعلنا في تعاطف؟ ؟وفهم الطبيعة على أنها إلهية كاملة وأن نظامها يقتضي اخضاع كل العناصر للمبادئ السائدة، أي للآلهة وللناس (المدعوين للتعايش في نفس المسكن).

"نحن نشارك في الطبيعة الإلهية، ونشعر بأننا جزء من الله، وبأن الكل الذي يحتوينا هو الله أيضاً: نحن شركاء وإياه واعضاء في هذا الكل".

أما تجربة العرفاء والصوفية المسلمين فلم يغب "الحب" عنها، لكن الحب الصوفي يرجع جوهره إلى تجربة الاتحاد بين الحبيب والمحبوب، فالمحبة لدى العرفاء هي: "ميلك إلى الشيء بكليتك، ثم إيثارك له على نفسك وروحك ومالك، ثم موافقتك له سراً وجهراً، ثم علمك بتقصيرك في حبه" هذا ما قاله الحارث المحاسبي، لكن الأوضح في تعريف الحب لدى الصوفية والعرفاء هو ما تجده في نص الجُنيد، إذ يقول: "لا تصلح المحبة بين اثنين حتى يقول الواحد للآخر يا أنا".

الحب في جوهر تجربة العارفين مسيرة وجودية يسلكها السائر السائح ليصل إلى مرحلة الفناء والاتحاد. وإذا كان ثمة من تأسيس للأخلاق في ضوء تجربة الحب الذي تفيض فيها حياة الصوفي حباً وشفقة على العباد، فهو تأسيس لقواعد ما ينبغي فعله للخواص من أهل الله، الذين ارتقوا بتجربتهم الدينية إلى حيث آفاقها البعيدة التي يراها العارفون. ومن ثم لا يمكن أن تكون الأخلاق الصوفية القاعدة العامة لتحديد ما ينبغي فعله وما لا ينبغي في ضوء التجربة الدينية التي يراد لها أن تكون منبع القواعد الاخلاقية.

غير أننا نجد لملاذ ستيس أساساً واضحاً في نصوص الكتاب المقدس في الاصحاح الرابع من رسائل يوحنا وفي فكر القديس بولس واوغسطين. فقد أعلت المسيحية من المحبة حتى صارت حجر الزاوية للإيمان وللسلوك الإيماني. حتى صار القديس أوغسطين يزن نفسه بالمحبة "المحبة هي وزني".

على كل حال ينبغي التأكيد على أن ستيس يعتقد:"أن ؟برجسون؟ كان على حق عندما ذهب إلى أن للاخلاق مصدرين: احدهما هو الضغط الاجتماعي للنظرة النفعية الخالصة، وهذا المصدر بالطبع دنيوي وطبيعي. اما المصدر الاخر فهو يكمن في التصوف الذي يتحد في نظرنا مع الدين في هوية واحدة. والغايات الاخلاقية التي تنبع من هذين المصدرين تناسب الواحدة منها الاخرى وتنسجم وتتناغم معها".

وقد ذهب ستيس إلى أن اتجاهات الحداثة سارت في ثلاث خطوات: انها قبلت وجهة النظر الطبيعية عن العالم، الثانية استنتجت الذاتية من المذهب الطبيعي، والثالثة استنتجت النسبية من الذاتية. وقد رأى ستيس أن العقل الحديث قد ارتكب خطأ فادحاً عندما افترض أن النسبية تنتج من الذاتية. وقد حاول أن يبرهن فيما نعود إليه من نظرية على أن الاخلاق الدنيوية شاملة وتصدق على جميع الناس.

عودة إلى نظرية ستيس والاساس الدنيوي للاخلاق:

يعتقد ستيس أن السبب الرئيس الذي دفع العقل الحديث إلى الانتقال من الذاتية إلى النسبية هو تنوع واختلاف الرغبات والاغراض. ويصر ستيس على أن هناك. في الاقل . ثلاثة اغراض انسانية مشتركة بين الناس هي مصادر القواعد العامة للسلوك وهي:

اولاً: المحافظة على الذات، وهي مصدر قواعد الامن والسلامة.

ثانياً: صحة البدن وهي مصدر القواعد الطبية.

ثالثاً: السعادة، وتؤسس عليها القواعد الاخلاقية.

نقف عند القواعد الاساسية وعلاقتها بالسعادة. وهنا يعتمد ستيس المفهوم السائد للسعادة. ويرى أن السعادة غاية مشتركة يرغب بها كل انسان. وهذه الغاية تطرح قواعد للسلوك نظير:

ينبغي عليك أن تحب جارك لاتكره، لاتحسد، لاتحقد، لاتسرق، لاتكذب،لاتحنث.

والسؤال المطروح على ستيس هو: كيف تكون هذه القواعد الاخلاقية قواعد عامة؟ والحجة الاساسية التي اعتمدها ستيس في الاجابة على هذا السؤال هي:

"أن القاعدة العامة التي تأمر بالخيانة وعدم الصدق ستكون كارثة، وبالتالي فان القاعدة العامة التي تأمر بالامانة والصدق سوف تزيد من السعادة البشرية".

وقد ذهب ستيس إلى أن حب جميع الناس مثل اعلى يتساوى جميع الناس فيه، أي انه كلما اقترب الناس جميعا من المثل الاعلى الاخلاقي اقتربوا من الوصول إلى الغاية الاخلاقية التي يرغب فيها الجميع وهي السعادة، ومن ثم فالقاعدة "حب جميع الناس" ليست نسبية. ثم ذهب معترضا بالقول: "افرض أن بعض الجماعات انكرت هذه الحقيقة الاخلاقية. فقد تكون هناك بعض القبائل في ماليزيا تعتقد أن الكراهية بالنسبة لها هي افضل وسيلة للسعادة، فهل يبرهن ذلك على النسبية؟" اجاب ستيس قائلا:

"كلا على الاطلاق، فذلك كله يبرهن على أن هؤلاء الناس قد ارتكبوا غلطة شنيعة عن سعادتهم، فمن الصواب بالنسبة لنا، أن قاعدة الحب إذا اتبعوها فسوف تؤدي بهم إلى حياة أكثر سعادة، ومن ثم فان قاعدة الحب هي احدى القواعد التي ينبغي عليهم اتباعها، إذا ما ارادوا تحقيق اعظم قدر من السعادة."

وقبل أن نمضي مع ستيس إلى نهاية عرضه لنظريته نجد الوقوف على ملاحظة ما تقدم امرا ضروريا في هذه المرحلة من البحث:

نحن لاناقش هنا في السعادة، ومفهومها الملتبس، ولنصادر على أن السعادة غاية يتوخاها كل انسان، لكننا نتساءل كيف نستطيع أن نستل القواعد الاخلاقية من هذه الغاية؟ هل يمكن أن نعتبر هذه القواعد اخلاقية لانها اخلاقية، وهذا يعني اننا ندركها بغض النظر عن مبدأ السعادة الذي يتوخاه الناس، ام اننا نجد أن السعادة لاتتحقق إلا باتباع هذه القواعد؟ قد يكون الدكتور ستيس بحكم تكوينه التربوي وسياقه الثقافي واجدا السعادة لاتتحقق إلا باتباع تلك القواعد التي وسمها بالقواعد الاخلاقية. لكن هذا لايكفي ما لم نتحقق تجريبيا من هذه القضية، ونجد أن الناس العاديين كلهم مدركون لها، أو أن نقرر أن السعادة مفهوم مطلق لايختلف اثنان حول اساليب تحققه.

وكلا الأمران يتعذر التسليم به، لان السعادة غرض تكويني يسعى إليه الانسان بالغريزة، وغرض تدبيري يسعى إليه العقلاء لتحقيق مصالحهم، فالسعادة ترتبط باللذة والالم والمصلحة والمفسدة، وهي مفاهيم نسبية وليست مفاهيم مطلقة يتفق الناس عليها، فضلا عن الاتفاق على اساليب تحقيقها والوصول اليها.

مضافا إلى أن التحقق التجريبي من اتفاق الناس على أن القواعد الاخلاقية تحقق السعادة امر يصعب التوفر عليه. فالتجربة المحدودة لكل مجرب لاتتيح له التأكد من صدق القاعدة على كل الناس بمختلف شعوبهم وعلى تنوع حقبهم التاريخية.

نحن لاننكر أن درجة من السعادة، أو الرفاه والمتطلبات المادية يقتضيها امر تحقيق وتجسيد المبادئ الاخلاقية، أي أن المبادئ الاخلاقية لايتاح لها أن تجد سبيلها نحو التطبيق دون التوفر على مستوى من المتطلبات المادية، لكننا ننكر أن تكون السعادة كمطلب تختلط فيه المصالح المادية بالقيم المعنوية منطلقا لتأسيس الاخلاق واقامة قواعدها واسسها.

أن كون اتخاذ نقيض القواعد الاخلاقية قانونا عاما يفضي إلى كارثة لاينتج أن القواعد الاخلاقية كقانون عام يفضي إلى تحقيق السعادة، ليس هناك أي تلازم منطقي بين القضيتين، لان الاستقطاب ليس تاما، فمن الممكن أن لايتخذ الناس أي قاعدة، وإنما يستخدمون منها ما يفضي إلى السعادة، التي قد تتحقق في كثير من الاحيان من خلال ممارسات لااخلاقية.

ثم كيف يتسنى لنا أن ننكر على بعض القبائل في ماليزيا صنيعها إذا اعتقدت أن الكراهية افضل وسيلة للسعادة بالنسبة لها؟الاننا نعتقد بان السعادة بالنسبة لنا تتحقق باتخاذ الحب قاعدة في حياتنا؟ وهذا يعني عودة إلى أن مقاييس السعادة امر نسبي، ام اننا ننكر صنيعهم لاننا نجد في الاخلاق قاعدة للسعادة وان السعادة لاتتحقق ابدا إلا بقواعد الاخلاق، وهذا يعني أن نراها مقياسا عاما يتفق عليه كل العقلاء، وهذا خلاف الفرض الذي اراد ستيس أن يناقشه!

ثم ما دمنا نريد أن نجد في القواعد الأخلاقية التزامات تتحقق عبرها سعادة الآدميين فمن حقنا أن نتساءل: كيف يتحقق الآدميون من تطابق الإلتزام بقواعد الأخلاق مع هدفهم الأسمى ؟السعادة؟؟ لا شك أن العقل القبلي الأولي ليس هو الوسيلة الملائمة لاكتشاف هذا التطابق، لوضوح أن السعادة هدف دنيوي. على حد تعبير ولتر ستيس . مختلطة بمعطيات تجريبية ما دام أمرها لا يفارق اللذة عادة، وما دامت قضية التطابق ترتبط في طرفها الآخر بالإلتزام العملي بقواعد الأخلاق، وهذا الالتزام لا يتعدى أن يكون معطى تجريبياً بعدياً.

من البين أن الإنسان لا يستطيع اكتشاف هذا التطابق إلا من خلال الممارسة التجريبية والإلتزام العملي بالقواعد الأخلاقية، أي أننا لا نستطيع أن نكتشف التطابق بين السعادة وبين الالتزام بالقواعد الأخلاقية إلا بعد ممارسة هذه القواعد، ومن ثم يتعذر أن تكون السعادة كهدف منتجة لاكتشاف القواعد الأخلاقية وضرورة الإلتزام، إلا بعد رحلة طويلة يمارس الآدميون سلوكهم خلالها، فيكتشفون بالمحاولة والخطأ التطابق المزعوم.

ثم أن التجربة الإنسانية الطويلة لا تسعفنا لكي تكون معيناً لاكتشاف هذا التطابق. لوضوح أن سلوك الجماعات الانسانية إن لم يكن مليئاً على طول تاريخ الانسانية المديد بالشرور والممارسات اللاأخلاقية، عبر حروبها وقتالها الممتد من حروب طروادة إلى الحربين الكونيتين المروعتين في القرن العشرين، فإن هذا السلوك المهذب في الأوهام ليس اجماعاً واضحاً يستطيع الآدمي أن يتلمسه ويبني عليه أحكامه إلا عبر تجربة تطول به، ويبقى بلا قواعد أخلاقية تهديه إلى أن يكتشف المحظوظون تطابق هذه القواعد مع هدفهم المنشود (تحقيق السعادة)!

ملاحظات ختامية:

"ولتر ستيس " (١٨٨٦-١٩٦٧م) فيلسوف توفيقي، انصب جل اهتمامه على التوفيق بين النزعة التجريبية، التي اضحت وشاحا للحداثة، وبين ما يراه جوهر الديانة، حيث النزعة الصوفية والتجربة العرفانية.

ومن هنا اولى اهمية قصوى للتوفيق بين المذهب الذاتي في الاخلاق. الذي يراه وليد الحداثة. وبين الاخلاق القائمة على اساس النزعة الصوفية والتجربة الدينية.

ومن هنا نلاحظ:

اغفال ستيس لاهم وابرز فلاسفة الاخلاق الغربيين في العصر الحديث اعني (عمانوئيل كنت)،فهو لم يتعرض لأي من افكار هذا الفيلسوف الكبير، بل تجده في لغته وتحليلاته ابعد ما يكون عن معطيات فكر فيلسوف النقدية الكبير "كنت". آية ذلك أن كنت وجد جوهر الديانة في مضمون العقل العملي والحكمة الاخلاقية، بينا ينقلب الامر عند ستيس ليرى الاخير أن جوهر الاخلاق يستمد من التجربة الدينية والاتحاد الصوفي.

تراءى لدى ستيس أن التعارض ليس قائما بين المذهب العقلي في الاخلاق وبين المذهب الذاتي، على غرار عدم التناقض بين المذهب التجريبي في المعرفة وبين التجربة الصوفية ورؤى العارفين. ولقد حاول ستيس في دراسته عن "الفلسفة والتصوف" أن يخضع التجربة الصوفية لموازين المذهب التجريبي في المعرفة فيضعها في مصاف التجارب التي يمكن تصديقها.

اما هنا فنجد ستيس محاولا أن يرفع التناقض بين المذهب الذاتي في الاخلاق ، الذي هو نتاج مذاهب الحداثة المعرفية، وبين قواعد الاخلاق التي تنبع من التجربة الصوفية. إلا أن الاستقطاب بين النظرية الذاتية في الاخلاق ونظرية القيم الموضوعية تصعب معالجته بهذا اللون من المصالحات التبسيطية. هذا اذا امنا بان الاخلاق يمكن تأسيسها على اساس التجربة الصوفية وذوبان الذات في الآخر عبر رؤية الحب العرفاني. وهو امر تعذر علينا تصديقه.

أن اتجاه البحث يذهب لدينا إلى الايمان بان التجربة الدينية تتأسس على قواعد الاخلاق، والعكس غير صحيح. وبدون ذلك يصعب تحديد الالزامات الاخلاقية وقواعد الواجب العملي في ضوء تجربة الحب التي تستعصي بطبيعتها على التحديد، ولعل تحديد القواعد الاخلاقية امام التجربة الصوفية يشكل احد الضمانات لضبط التجربة في الاطار العام للقيم الاخلاقية.

ونحن ذاهبون في تفسير العلاقة بين القاعدة الاخلاقية ؟الاسس والمبادئ؟ وبين الشرائع ومذاهب الفضيلة إلى أن هذه الاسس والمبادئ تشكل المنار والمقياس، الذي تقاس به اخلاقية الشرائع واخلاقية المشرعين، فهي مصدر الهام التشريعات وفقهاء القانون، ومن ثم يصعب افتراض تأسيس قواعد الاخلاق في ضوء الاديان ومذاهب التشريع. واؤكد أن المراد من قواعد الاخلاق المبادئ والاسس العامة للسلوك الاخلاقي.

على اننا نذهب إلى استحالة اشتقاق قواعد مذاهب الفضيلة واحكامها من المبادئ والاسس العقلية، لان نسق احكام العقل العملي النظرية مختلف عن نسق احكامه التطبيقية، فالاولى تنظر إلى الافعال بذاتها والثانية تنظر إلى الافعال بملابساتها. نعم مذاهب الفضيلة وشرائع السلوك تستلهم وتستنير بالمبادئ الاخلاقية العقلية، وتقاس اخلاقية مذاهب الفضيلة على اساس مدى حفاظها على القواعد الاخلاقية في عالم تزاحم المبادئ بالمصالح وتعارض الواجبات وتدافع الافعال.

ثم أننا نلاحظ أن ستيس المتأثر بروح التجربة الدينية في مفهومها المسيحي عند القديسين كما أشرنا، متأثر أيضاً بأرسطو طاليس تأثراً واضحاً وهو يصوغ نظرية الأخلاق على أساس دنيوي. لم يقتصر هذا التأثر والاستلهام على استدعاء أرسطو في جعل السعادة غاية الآدميين في سلوكهم والمصادرة عليها لاستلال قواعد الأخلاق التي تحقق هذه السعادة. بل تعداه إلى قضية التحديد والتعريف واتباع منهج أقرب ما يكون إلى منهج ارسطو.

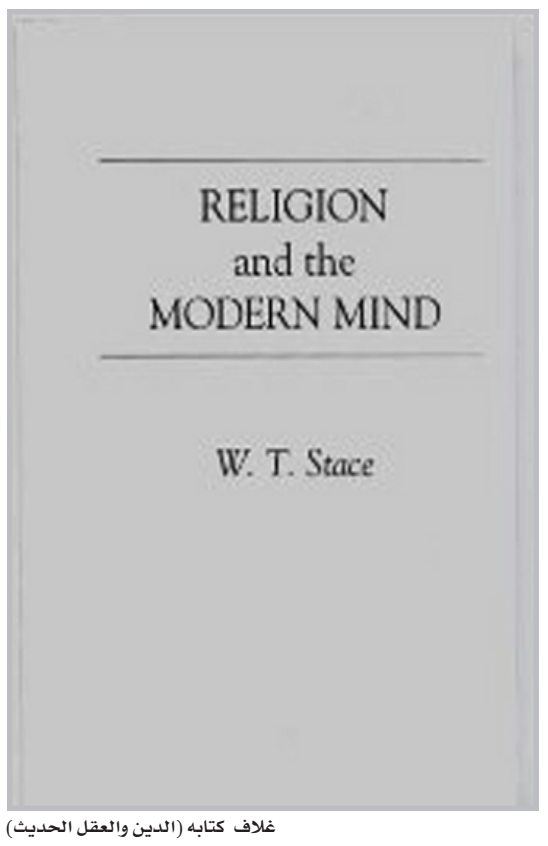

غلاف كتابه (الدين والعقل الحديث)

آراء وافكار
Opinions & Ideas

ترحب آراء وافكار بمقالات الكتاب وفق الضوابط الآتية:
١. لا يزيد عدد كلمات المقالة على ٧٠٠ كلمة.
٢. يذكر اسم الكاتب كاملا ورقم هاتفه وبلد الاقامة ومرفق صورة شخصية له.
٣. ترسل المقالات على البريد الالكتروني الخاص بالصفحة:
Opinions112@yahoo.com